ك. ج. أمّي

عَبدُ القادِر

لا لِلاستِعمار

سمير



عَبدُ القادِر:
«لا لِلاستِعمار»

كُلُّ كائِنٍ هُوَ كِياني.
عَبدُ القادِر

«إلى سُمَيّا، ابنَةِ أَخي المَحبوبَةِ.»
ك.م. أَمّي

Abd El-Kader : « Non à la colonisation » © Actes Sud, France, 2011
تُرجِم إلى اللّغة العربيّة لدى سمير دار نشر
حقوق التّرجمة © سمير دار نشر 2016
سنّ الفيل الجسر الواطي، ص.ب. 55542، بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-864-6

الَّذينَ قالوا لا

كِبير - مُصطَفى أَمّي

عَبدُ القادِر
لا
لِلاستِعمار

سمير

١

في صَباحِ أَحَدِ أَيّامِ تِشرينَ الثّاني (نوفَمبِرَ) مِنَ العامِ 1832 ، طَلَبَ مُحيِي الدّينِ، والِدي العَجوزُ، أَن يَراني، وَقَدِ اتَّسَمَ وَجهُهُ بِالغُموضِ، فَأَسرَعْتُ إِلَيهِ.

- أَنتَ تَعرِفُ أَنَّ بَلَدَنا يَمُرُّ مُنذُ بَعضِ الوَقتِ بِظُروفٍ عَصيبَةٍ.

- بِالفِعلِ، أَعرِفُ ذلِكَ، يا أَبي.

- مَضى عامانِ وَالكُفّارُ يَرتَكِبونَ تَجاوُزاتٍ مَرفوضَةً في مَدينَةِ الجَزائِرِ لِإخضاعِ هذا البَلَدِ. وَلا رادِعَ لَهُم،

بِحَسَبِ عِدَّةٍ شَهاداتٍ. وَهُم عَلى وَشكِ الوُصولِ إلى مَنطِقَتِنا بَينَ يَومٍ وَآخَرَ. وَلَيسَ أَمامَنا إلّا القِتالُ لِلدِّفاعِ عَن هذِهِ الأَرضِ.

- لَم نَتَسَلَّحْ يَومًا ، يا أَبي!

- أَنا أَيضًا ، اعتَقَدْتُ، لِوَقتٍ طَويلٍ، أَنَّني سَأَموتُ بِدونِ أَن أَستَعمِلَ سِلاحًا نارِيًّا .

- أَتُريدُ أَن تُقاتِلَ؟

- لِكُلِّ شَيءٍ بِدايَةٌ، يا بُنَيَّ.

- أَنتَ لا تَعني ما تَقولُهُ يا أَبي، أَلَيسَ كَذلِكَ؟

- بَل أَعنيهِ.

- أَنتَ تَعرِفُ جَيِّدًا أَنَّكَ لَم تَعُدْ تَستَطيعُ امتِطاءَ حِصانٍ.

- سَأَفعَلُ ذلِكَ، إذا لَزِمَ الأَمرُ، وَسَأُقاتِلُ حَتّى آخِرِ نُقطَةٍ مِن دَمي.

- هذا غَيرُ مَعقولٍ، يا أَبي.

- لَقَد وَعَدْتُ زُعَماءَ القَبائِلِ بِذلِكَ، فَجاؤوا يُناشِدونَني أَن أَكونَ عَلى رَأسِ المُقاوَمَةِ.

- وَلكِنَّ زُعَماءَ القَبائِلِ يَجهَلونَ أَنَّكَ مَريضٌ.

- قُلْتُ لَهُم إِنَّني عاجِزٌ عَن قِيادَةِ المُقاوَمَةِ نَظَرًا لِتَقَدُّمي في السِّنِّ، لكِنَّني أَكَّدْتُ لَهُم أَنَّني سَأَكونُ مَعَ الجُنودِ.

- لا يُمكِنُكَ ذلِكَ، يا أَبي.

- هذا واجِبي، يا بُنَيَّ.

- أَنتَ تُعَرِّضُ نَفسَكَ، بِدونِ داعٍ، لِمَوتٍ مُحَتَّمٍ.

- لَقَد قُدِّرَ لي، بِدونِ شَكٍّ، أَن أَموتَ في ساحَةِ القِتالِ، وَلكِنَّني لَمّا أَمُتْ بَعدُ، فَلا تَستَعجِلْ دَفني.

- وَمَن هُمُ المُقاتِلونَ الآخَرونَ؟

- شُبّانٌ وَشُيوخٌ مِن قَبائِلِ غَربِيِّ هذا البَلَدِ كُلِّهِ.

- هُم أَيضًا، لَم يُقاتِلوا قَطُّ.

- سَيَتَعَلَّمونَ القِتالَ.

- نَحنُ واصِلونَ حَتمًا إِلى مَجزَرَةٍ.

- اللّٰهُ مَعَنا، وَلَن يَتَخَلّى عَنّا. مَهما كَلَّفَ الأَمرُ، يَجِبُ أَن نَمنَعَ سُقوطَ هذِهِ الأَرضِ في أَحضانِ فَرَنسا.

- وَمَن سَيَقودُ المُقاوَمَةَ، يا أَبي؟ لا يُمكِنُ أَن تَتِمَّ بِدونِ قائِدٍ.

- كُنْتُ أَوَدُّ كَثيرًا أَن أَقودَها لِأُلَقِّنَ أَعداءَنا دَرسًا، وَلكِنَّني مُتَقَدِّمٌ جِدًّا في السِّنِّ، مَعَ الأَسَفِ!

- وَمَن سَيَتَوَلّى ذلِكَ؟

- فَكَّرْتُ في رَجُلٍ.

- هَل أَعرِفُهُ؟

- تَعرِفُهُ حَقَّ المَعرِفَةِ.

- مَن هُوَ؟

- أَنتَ يا بُنَيَّ.

- أَنا؟

- نَعَم، أَنتَ.

- هذِهِ مَزحَةٌ، يا أَبي. أَنا، عَلى رَأسِ المُقاوَمَةِ؟

- نَعَم، أَنتَ.

- وَلكِنَّني لا أَعرِفُ حَتّى كَيفَ أُمسِكُ سِلاحًا، يا أَبي.

- لَدَيكَ الإيمانُ، وَسَيَكونُ وَراءَكَ رِجالٌ يُسانِدونَكَ...

- هذا لا يَكفي، يا أَبي...

- سَيُعَلِّمُكَ بَعضُهُم استِعمالَ الأَسلِحَةِ.

- لَمّا كانوا لَم يُقاتِلوا قَطُّ، فَإِنَّ مَعرِفَتَهُم في هذا المَجالِ مَحدودَةٌ جِدًّا؛ وَلَعَلَّ أَكثَرَهُم شَجاعَةً قَدِ استَعمَلَ السِّلاحَ النّارِيَّ لِلصَّيدِ لَيسَ إلّا.

- هذا أَكثَرُ مِن كافٍ لِتَأهيلِكَ.

- أَخشى، يا أَبي، أَلّا يَكونَ هذا كافِيًا.

- سَيُعَلِّمونَكَ كَيفَ تَحمِلُ السِّلاحَ، وَتُلَقِّمُ، وَتُصَوِّبُ ...

2

تَرَكْتُ العَجوزَ مُحيِي الدّينِ. وَفي اليَومِ نَفسِهِ، أَسرَعَ رِجالٌ مِن جَميعِ القَبائِلِ المُجاوِرَةِ لِإِعلانِ وَلائِهِم لي كَأَميرٍ عَلَيهِم. لَم يَسبِقْ لي حَتّى ذلِكَ الحينِ، أَن تَعَوَّدْتُ عَلى غَيرِ الكُتُبِ، أَمّا فَنُّ الحَربِ فَكانَ غَريبًا عَنّي. وَلكِنَّني كَتَمْتُ هذا السِّرَّ عَنِ الرِّجالِ الَّذينَ كُنْتُ سَأَقودُهُم في ساحاتِ القِتالِ، مَنعًا لِإِهانَةِ والِدي. قُلْتُ لهم:

- فَلنَتَجَمَّعْ هُنا غَدًا، قُبَيلَ الفَجرِ.

صاحَ أَحمَدُ، أَحَدُ الشُّبّانِ الأَكثَرِ تَهَوُّرًا:

- أَتوقُ إلى مُقاتَلَةِ هؤُلاءِ القَومِ! أَتوقُ إلى شَنِّ مَعرَكَةٍ ضِدَّ الأَعداءِ لِيَعرِفوا أَنَّنا قَرَّرْنا الدِّفاعَ عَن وَطَنِنا بِضَراوَةٍ.

فَقُلْتُ:

- الفَرَنسِيّونَ هُم أَفضَلُ تَسَلُّحًا مِنّا، وَلكِنَّنا سَنَنالُ مِنهُم بِمُباغَتَتِهِم.

وَأَضافَ الَّذي اختَرْتُهُ لاحِقًا مُساعِدًا لي:

- فَضلًا عَن ذلِكَ، نَحنُ نَعرِفُ الأَرضَ أَكثَرَ مِنهُم.

وَتابَعَ أَحمَدُ مُبتَهِجًا:

- سَنُكَبِّدُهُم هَزيمَةً قاسِيَةً!

كانَ واثِقًا بِأَنَّنا سَنَهزِمُ أَعداءَنا.

إرتَجَفْتُ لِسَماعِ هذِهِ الكَلِماتِ، فَأَنا لَم أَكُنْ واثِقًا بِأَنَّ النَّصرَ الَّذي يَتَمَنّاهُ رِجالي سَيَكونُ حَليفَنا أَو بِأَنَّهُ يُمكِنُ أَن يَكونَ كاسِحًا.

لَم أَستَطِعِ النَّومَ في اللَّيلَةِ الأُولى تِلكَ. كُنْتُ أُفَكِّرُ في الَّذينَ أَتَونا كَأَعداءٍ. لَم نَكُنْ قَد آذَيْناهُم أَو سَعَيْنا إلى قِتالِهِم قَطُّ. وَها هُم قَد وَصَلوا، مُقتَنِعينَ بِأَنَّهُم

سَيُصبِحونَ أَسيادَ هذِهِ الأَراضي، بِدونِ مُقاوَمَةٍ، وَبِمُجَرَّدِ أَن يَغرِسوا عَلَيها عَلَمَ دَولَتِهِم.

عِندَ الفَجرِ، كُنْتُ مُستَعِدًّا لِشَنِّ الهُجومِ، وَلكِنَّني كُنْتُ في سِرّي، أَخشى أَن تَقَعَ مَجزَرَةٌ. إنضَمَّ إلَيَّ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ الرِّجالِ، مِن كُلِّ الأَعمارِ، تَدفَعُهُم فَقَطِ الرَّغبَةُ في الدِّفاعِ عَن أَرضِنا. كانَت أَسلِحَتُنا أَقَلَّ قُدرَةً عَلى مُبارَزَةِ أَسلِحَةِ دَولَةٍ كَفَرَنسا.

ساعَةَ القِتالِ، لَم يَكُنْ أَحَدٌ مِنّا مُرتَدِيًا لِباسًا عَسكَرِيًّا، فَلَم يَكُنْ لَدَينا ما يَدعونا إلى ارتِداءِ لِباسٍ مُوَحَّدٍ أَيًّا كانَ. وَحدَها الكُتُبُ، وَفي طَليعَتِها القُرآنُ الكَريمُ، كانَت تُرشِدُ أَغلَبِيَّتَنا. مُنذُ نُعومَةِ أَظفارِنا، كانَ هَمُّنا أَن نَحيا في وِفاقٍ مَعَ الآخَرينَ، وَقَد شَغَلَتِ الصَّلاةُ وَالدِّراسَةُ مُعظَمَ وَقتِنا. لَقَد تَعَلَّمْنا احتِرامَ أَنظِمَةِ الطَّبيعَةِ الهادِئَةِ الَّتي وَهَبَنا إيّاها اللّٰهُ اللّامُتَناهِيَةُ رَأفَتُهُ، لِنَتَّحِدَ بِها.

طُبِع هذا الكتاب لدى مطابع دار الكتب-دوتس في بيروت،
في كانون الثّاني (يناير) 2016

الَّذينَ قالوا لا

رِوايـاتٌ تـاريخِـيّـة

«الأَرضُ واسِعَةٌ بِما يَكفي لِاستِقبالِ جَميعِ البَشَرِ عَلى اختِلافِهِم، بِشَرطِ أَن يَرغَبوا في العَيشِ مَعًا وَأَن يَقتَسِموا ما يَملِكونَهُ. لِماذا يَفرِضُ إنسانٌ حَقيقَتَهُ وَقانونَهُ عَلى غَيرِهِ؟ ماذا يَجني؟ سَتَكونُ فَرَنسا أَفضَلَ بِكَثيرٍ في دِيارِها، وَلَن تُعَرِّضَ أَبناءَها لِمَوتٍ رَخيصٍ. وَلكِنَّها سَتَكونُ عَلى الرَّحبِ وَالسَّعَةِ، هُنا أَيضًا، إذا وافَقَت عَلى أَن تَأتِيَ بِهالَةِ أُمَّةٍ قاتَلَت في سَبيلِ الحُرِّيَّةِ وَدَفَعَت لِأَجلِها ثَمَنًا باهِظًا، لا أَن تَأتِيَ بِصورَةِ مُقاتِلٍ يَزرَعُ المَوتَ.»

www.samirediteur.com

ISBN 978-9953-31-864-6

9 789953 318646